التعليم الأبوي

في ظل حاضر وماضي الأمة الإسلامية
وموقف الاستعمار منه

بقلم
الفقير إلى عفو مولاه الغني
محمد بن علي بن محمد باعطية الدوعني

اسم الكتاب:التعليم الأبوي في ظل حاضر وماضي الأمة الإسلاميـــة وموقف الاستعمار منه.

اسم المؤلف: الشيخ محمد بن علي بن محمد باعطية .

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م

عدد الصفحات: ٢٨ صفـــحة

قياس القطع : ١٢ × ١٧

جميعُ حقُوقُ الطبعِ محفُوظةٌ للمُؤلّف

مقدمة

بسم اللَّه الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله الهادي إلى الطريق السَّديد، والدَّال على المنهج الرشيد، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد سيد أهل القربب والتسديد، وبعد:

فإن الناظرَ الحصيف إذا تلمس ما يدورُ حولَه في حياته، وما يُراد بأمته في خضمِّ هذا الطوفان الجاحد الجامد المجتاح، الذي لا يريد من أيِّ أحد أن يقف أمام زحفه المتلاحق، وغطرسته المتمردة على قانون الكون بأسره، وفي هذا الهيجانِ الملتهب لابد أن يدير المسلمُ الواعي الفكرة، وأن يقلب العبرة، حتى يتبصر طريق النجاة، وحتى يحققَ موقعه في هذه الحياة.

والحق أن الواعي من هذه الأمة المتميزة أمة الإسلام لا تزيده الأعاصير إلا ثباتاً، ولا الهَيَجان إلا اتزاناً، ولا التمرّدُ إلا قوة، ولا ذلك الطوفانُ إلا تحرزًا، لا لينجوَ بنفسه بل لكي يسلك طريقَ النجاة المرسوم والموضح له، والذي قد سبقه في تلك الطريق رموزٌ تبعهم، وهداةٌ اهتدى بهم، عرفوا كل المتغيرات والتغيرات،

ورُسمت لهم وفق ضوابط معروفة وأمور مدروسة، ولذلك لا اضطراباَ عندهم ولا تخبط، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

إذاً فهو على منهاج وثيق، وعلى خُطاً ثابتة، واتزان مضبوط، يسلكه ويأخذ غيرَه إليه. إذاً مسؤولية الفرد في هذه الأمة نحو أمته معروفة، وعليه أن ينادِيَ الأمة -إذا كان هو من أهل القدوة والاقتداء - إلى السبيل الواضح، والصراط المستقيم؛ لِيَرْبَأَ بالأمة عن المزالق، ويجنبها المهالك والمعاطب، ويأخذ بيدها إلى كل خير.

وهذه مسؤوليةٌ ملقاةٌ على العواتق، وقد أُخذَ العهدُ والميثاقُ في الكتاب والسنة أن يبيّن الهداةُ للأمة الطريق، وهو عهدٌ لو يعلمه الكثيرُ خطيرٌ وكبير.

ومن هنا يظهرُ أن الأمةَ الإسلاميةَ منذ ظهرت إلى كيان الأمم، طريقها لها مرسومٌ، ودربُها مفهوم، فهي أمة اقتداء واهتداء. والاقتداءُ لا بُدَّ له من ارتباط، فارتباط المتأخر بالمتقدم لا بُدّ منه، ولا شك ولا ريبَ

(١)سورة يوسف آية (١٠٨)

فيه. وقد رَسَم المولى الكريمُ طريقَ الاقتداء والاهتداء لرسوله العظيم، حيثُ أعلمه ارتباط المتأخر بالمتقدم، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

فهذا الارتباطُ ذكرى للعالمين، لابُدَّ أن تتذكَّرَه الأمةُ في سائر أطوار حياتها، وفي تقلبات زمانها.

* * *

ومن هنا ظهرت القاعدةُ العريضةُ لهذه الأمة، قاعدةُ الارتباط، ومن ثَمَّ الاقتداء، ومن ثَمَّ الاهتداء، وهو الذي غرسه عليه الصلاةُ والسلام في نفوس أصحابه، وعليه دَرَج مع أتباعه، إنها مدرسة التعليم الأبوي - كما سمّاها داعية اليمن ومفكّرُه السيدُ أبوبكر

(١) سورة الأنعام آية (٨٣ - ٨٦)

بن علي المشهور- .

والمرادُ بالتعليم الأبويِّ باختصار هو: التعليمُ الذي لا تنفك روابطه بين المتعلم والمعلّم، وإن طال الزمان وتصرمت الأجيال، بل يبقى رابطة أبوية تُشبه رابطةَ النسب؛ فإن الابنَ لا ينفك نسَبُهُ عن نسب أبيه وإن مات الأب، فالرابطةُ في ذلك التعليم رابطةٌ روحيةٌ واتصالٌ معنوي، وهو التعليمُ النبويُّ فلا مشاحاة في الأسماء، وهو الذي يُعنى بالإتصال الرُّوحي والعلمي، وسلسة الإسناد في سائر العلوم. وهو عكسُ التعليم المعاصر، والذي صوّر التعليمَ في هذه الأيام بأنه حرفةٌ ومهنةٌ، وبهذا المسمّى كان التعليمُ لا رابطةَ فيه بين المتعلم والمعلم. والمثال يوضّحُ ذلك فإنه طالما أن التعليم حرفةٌ أو مهنةٌ فإنك لو أتيت بحرفيٍّ أو مهنيٍّ يقومُ لك بعمل ما، وبقيَ مدة في ذلك العمل الذي يقوم به، ثم أخذ أجرَه بعد تمام العمل، فما الرابطة بينك وبينه بعد ذلك؟!... .

فبهذا يظهرُ الفرقُ بين التعليم الأبوي الذي لا تنفك روابطه إلى ما بعد الممات والبعث والحشر،

وبين التعليم المُعاصر. فهناك يُؤخذ العلمُ مع العمل المرتبط بالمعلم، وهنا يكونُ علماً مجرداً من أيّ ارتباط بين الآخذ والمأخوذ عنه .

* * *

ومن خلال ما تقدم يتضحُ لنا أنه عليه الصلاة والسلام هو الذي بنى هذه المدرسةَ في مجتمعه -مدرسة التعليم الأبوي- وأسّسَ دعائمَها، حتى قال موضِّحاً ذلك لأمته: **"إنما أنا لكم مثل الوالد"** (١).

فهو التزامٌ وتلازمٌ بين المعلم والمتعلم، بين المربّي والمتربي، بين الشيخ والمريد، درجَتْ عليه الأمة وعرفتْه من الأب الأكبر لها الحاني عليها الوجَل، الخائف من أن يصيبَها ما أصاب الأممَ السالفةَ والأممَ البائدة، بل قد رسَم القرآنُ هذا المبدأ وهذا المنهجَ في وضوح بيِّن في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٢).

* * *

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان.
(٢)سورة آل عمران آية (٣١) ..

* أثَرُ التعليمِ الأبَوي على جيلِ الصحابةِ ومن تَبِعهم:

لقد دَرَج الرعيلُ الأولُ من الصحابة على هذا المنهجِ الوارف، وانتهجوهُ في حياتهم، ارتباطاً وثيقاً بصاحب الرسالة، ومحبة عميقة تأصّلتْ في جذور الأفئدة، وخالطتْ العظمَ واللحمَ والدم. فنتج عندئذ ذلك الجيل الشامخ الناشئ الذي قام على كواهله بناء الدولة الفتية القائمة بأمر الله تعالى تناهضُ أكبرَ قوى الكفر والإلحاد المتمثل في أعظم قوتين ودولتين طحنت العربَ في ذلك الوقت، وجعلتهم رحىً يطحنُ بعضُهم بعضاً؛ لترضيَ كل طائفة منهم أسيادَها، حتى أصبحوا أمة متفرقة الأوصال، يضربُ بعضُهم رقابَ بعض لأتفَه الأسباب، بل وتثير النعرات بينهم ليصبحوا أمة منكوبة، لا تقومُ لها قائمة، تتحكم في أموالهم ورقابهم وأولادهم وتاريخهم ومعاملاتهم روما وإمبراطوراتها، وفارس وملوكها - وما أشبه اليوم بالبارحة ، فالمستقرئُ هناك يجدُ النتائجَ

هنا في واقع الأمة في هذه الأيام، وكأنّ الزمنَ استدار- ولكن سرعان ما ظهر الحق، واجتمع الشتاتُ وحصل التلاحم، وخرج فتيانُ مدرسة **محمد** ﷺ الذين ارتبطوا به قلباً وقالباً، وأخذوا تعاليمَ الإسلام، وحصل بينهم الإخاء، وعملوا كلهم، وبرزوا من تحت يد صاحب الرسالة، لا يصدرون إلا عن رأيه، ولا يتأخرون إلا بأمره، حتى أصبحوا كما أراد أن يكونوا بُنياناً واحداً يشدُّ بعضه بعضاً، وكما أرادهم مولاهم ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١).

* * *

فالإخاءُ لا بُدّ أن ينغرس، ولا تغرسُه إلا الأبوة، وهي التي تلقي ذلك الإخاءَ بالْتفاف الأخوةِ حولها، فهم ذلك الرعيلُ الأولُ، وبه تعاملوا، حتى أنه عليه الصلاة والسلام عَرف كما عرف جميعُ الصحابة أنه لا بُدَّ وأن يلتحقَ بالرفيقِ الأعلى، لذا ولكي لا يظُنَّ ظانٌّ ولا يتخيلَ متخيلٌ

(١)سورة الحجرات آية (١٠).

ويقولَ: إن الرمزَ الأبوي والتعليم المُلقى إلى الأمة بهذه الكيفية لا يكونُ إلا في شخصه عند حياته الدنيوية عليه الصلاة والسلام، ويكون ذلك مقيّداً بفترة من الفتَرات، وبُرهة من الأوقات، عندها أعلنَ صاحبُ الرسالة أن لكل وقت رموزاً أبَديّة تتلقى عنها الأمة في سائر أوقاتها وأيامها، ولا ينف ذلك ما دام دينُ الله باق ، فقال موجِّهاً لأصحابه، ولمن يأتي بعدهم من القرن المباشر له والذين لن يشاهدوه بصورته الجسمية في وقت من الأوقات - أي : بعد انتقاله للرفيق الأعلى- ولكي يربطهم برموز تتجسَّد فيها معنى الأبوة المقرونة بالتعليم والتربية لا الخالية المفرّغة منها، فقال عليه الصلاة والسلام:"**عليكم بسُنّتِي**"، وهو خطابٌ لأصحابه المشاهدين له، وهو **عليه الصلاة والسلام** قائمٌ بذلك ، ثم قال لمن بعدهم: "**وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي**"[1]. لقد ربَط عليه الصلاة والسلام أمتَه بهذه الرموز

١ رواه ابو داود، والترمذي وابن ماجه،

الأبوية والمدرسة النبوية، والتي من خلالها كانت الأمة في أوْج عظَمَتها ؛ لأن الذي يمثّل النبيَّ ﷺ في التربية والتعليم، والهداية والعطاء والبذل رموز لا بُدَّ من الارتباط بها .

إنها الوراثة الحقيقية، والتي قال عنها ﷺ: "**العلماءُ ورَثةُ الأنبياء، إنّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً،إنما ورثوا العلمَ فمن أخذهُ أخذ بحظ وافر**".[1] وراثة في التعليم المرتبط بالمعلم، ذلك الارتباط الوثيق، الذي جعل الأمةَ في مصاف الأمم المرموقة التي أدت واجبَها نحوَ الإنسانية كلِّها وبقيَ هذا المنهجُ مغروساً في قلوب أمة الإسلام في سائر مراحلِ وأدوارِ الزمنِ التي مرت به.

* * *

(١) متفق عليه .

*** بداية الانحراف عن منهج التعليم الأبوي:**

لقد بقيت مدرسةُ التعليم الأبوي ما بين مدٍّ وجزر، وقد أخبر بذلك عليه الصلاة والسلام لمّا قال: "**بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغُرباء**"(١).

إذاً فحديثُنا هذا قد يكونُ غريباً بعضَ الشيء عند كثير من الذين فقدوا أو لم يعرفوا التعليمَ الأبوي، الرابط بين المعلم والمتعلم برباطٍ وثيق، ومحبة ضافية، حيث يرى المتعلمُ في مُعلِّمه ذلك الرمزَ الذي حدَّده له صاحبُ الشريعة، والذي فُقِد في هذه الأيام، وحُورب على مدار الأزمان.

إن ما ذكرناه قد أصَّله المصطفى ﷺ في الرعيل الأول من أصحابه، وأتى عصرُ الراشدين وكانت الرموزُ من الصحابة لمن بعدهم كثيرة، وأظهرتْ من الأمة الشيءَ الكثير، وكان الفتحُ والفتوحات، وكان النصر والانتصارات، ثم خُتم عهد الراشدين، وبقيت جذوة هذا التعليم الأبوي في

(١) رواه مسلم.

سلوك الناس وحياتهم وعبادتهم قائمة، وإن نحا نحوا مُنحرفا، وانحدر منحدراً صعباً في قضية الحكم التي قوَّضها بنو أمية، وشذَّوا بها شُذوذاً بليغا أخرجوها عن جادَّة المدرسة الأبوية إلى دائرة الشتات وحبِّ الذات، وقد صدق الصادق الأمين أنَّ أولَ ما يُنقَضُ من عُرى الإسلام الحكم، وكان بداية الحرب المُعلنة الخفية على هذه المدرسة الأبوية والتعليم الأبوي، ولكن بقيت جوانبُه في جميع صورها وأشكالها قائمة، والرموزُ للناس في سائر الحياة ـ إلا المستثنى منها ـ باقية .

وتَرَك الرموزُ من أهل الرابطة والارتباط ما نقضه أولئك في الحكم، وحافظوا على الباقي؛ لأن صاحبَ الرسالة قد أخبر عن ما سيحدث في أمته على مدى الأزمنة، ورتَّب ما يجبُ أن يكون فيه الترتيب، وموقفُ الأمة منهم، وعليهم وزرُ ما صنعوا وإثم ما تحمَّلوا، ورُغم ذلك حمل هؤلاء مشاعل الهداية للأمم، وانبهر الأعداءُ بالدين ودخلوهُ مذعنينَ طائعينَ محبينَ له ولأتباعه.

*** محاولات أعداء الدين لزعزعة المدرسة الأبوية:**

حين بلغ المسلمون مبلغَهم من التقدم والازدهار، وما أكرمهم الله به من الفتوحات والانتصار، عندما كان منهجُ التعليم الأبوي مغروساً في قلوبهم ومُسيطراً على حياتهم وسلوكهم لم يكن مُتوقعاً من عدوهم أن يتركهم لأنفسهم، وهو الحاقدُ المتربِّصُ بهم، كيف وقد أخبرنا بذلك المولى عزَّ وجلّ حيث يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1].

لقد عمدَ الأعداءُ إلى زعْزعَة ذلك الثراء في التعليم الأبوي، وكانت لهم الحملاتُ تلْوَ الحملات، أمّا في تجييش الجيوش فلم يكن النصرُ حليفَهم، ولكن عمدوا إلى زعزعة الأمر من الداخل، فكان منهم على سبيل المثال لا الحصر لزعزعة وفكِّ رابطة أواصر القاعدة العريضة التي رسمها النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ للرعيل الأولِ ومن بعدهم في التربية والتعليم الآتي :

(١)سورة البقرة آية (١٢٠).

١ـ **حاولوا الطعنَ في القرآن**، والثَّلْب فيه بالتبديل والتغيير، لكن لم يكن لهم إلى ذلك سبيل، فحاولوا إلصاق الشُّبه وغيرها حوله، ولكن كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[١].

٢ـ **أتوا للمصدر الثاني** من مصادر التشريع وهو الحديثُ الشريف، وأرادوا فكَّ الارتباط بهذا الأصل الأصيل، فعمدوا إلى عدة أمور: منها قولهم: إن القرآن يكفي فلا حاجة للحديث، وروَّجوا لذلك، وكان لأولئك بالمرصاد أصحابُ التعليم الأبوي، فدحضوا الشبه ودمغوها بالحُجَج، وذكروا أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام قد قال: "**ألا إنّي أوتيتُ القرانَ ومثلَهُ معه**"[٢] أي: السنة، وبيَّنوا منزلةَ السنة للمسلمين وصنَّفوا في ذلك وشرعوا وسنُّوا، وحكموا بما جاءَ على لسان سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام.

ومنها عندما حاول أولئك الأعداءُ الدسَّ على

(١) سورة الحجر آية (٩).
(٢) أخرجه أحمد في المسند بسند صحيح

صاحب السنة المطهرة أقوالاً لم يقُلْها، كانوا لهم بالمرصاد، وبيّنوا الزائف من الصحيح والباطل من الحق، فاندَحَر أولئك خاسئينَ خائبَين.

٣_ **الْتوَى أولئك إلى العقيدة**، وخلطوا على الناس أشياء، وكثرت الفرقُ وتداعت الطوائف، وظهرت المعتزلةُ والمُجسِّمةُ وغيرُهم، فقام أهلُ السنة والجماعة، أهلُ التعليم الأبوي، وبيّنُوا ووضّحُوا وألّفُوا وأعادُوا الأمور لنصابها، وحفظوا للعقيدة ميزانها، وصانُوا عقائد الناسِ من الزيغ والابتداع.

٤_ **عمدوا إلى الفساد** والإفساد والترويج للمُلهيات، والخروج بالآداب عن جادّة الطريق المستقيم، وغرس الرُّعونات في النّفوس، وتزيينِ الشهوات لأهل النزوات.

ولكن أهلُ تلك المدرسة كانت عندهم موازينُ الأمور مستقيمة، فهناك علماءُ السلوك والتربية، الرموزُ الأبويةُ التي يتأثر الناشئُ بمشاهدتهم، ويتربى بأنظارهم، وتسمو روحُه بالجلوس

معهم، ويأنسُ كل الأنس بقربهم، وتزكو نفسُه بسماع كلامهم في التربية بجميع جوانبها، إنهم الوُرَّاث أهل التصوُّف والتزكية الذين حفظوا روحَ الإسلام، وصانوا جوهرَه، فكان التوازن وخاب سعيُ المفسد.

وحتّى لمّا ضعُفت الأمةُ في وقت من الأوقات، وخارت قُواها بعد أن دسّ لها الأعداء، ونخروا في صميم جسمها، وانزلقتْ بهم الشهوات، وقعدتْ بهم الملذات، حتى كان للهزيمة دورٌ في حياة الأمة بأسرها في عصر المغول، الذين تتابعُوا على دولة الإسلام المهزومة في ذلك العصر المنكوبة من داخلها، ففطن ذلك الفذّ المجتهدُ صاحبُ التعليم الأبويِّ الإمامُ الغزاليّ أنّ قيامَ الجهاد في الأمة وداعي النصر لا يكون من قوم قد استَهْوتْهُم الشهَوات، وقعدتْ بهم الملذّات، وفقدت عندهم التربية الروحية، فألَّف كتابَ الإحياء، وعنَى بذلك الجانب في تلاميذه، وتخرّج التلاميذ وتخرّج عليهم النُّجباء، أمثال **الشيخ الكبير عبدُ القادر الجيلاني،**

وأتَى مريدُوه وتلامذتُه، وتخرّج بهم القادةُ والملوكُ الذين صُقلت قلوبهم بالتربية الأبوية، وتجدّد روحُ الإيمان في نفوسهم. فخرج أولئك الأفذاذُ من بني بُوَيهْ من هذه المدرسة، وقادوا الحملات، وحصلتِ الانتصاراتُ، وتجدّد للدين ثوبُه، وللجهاد رجالُه. وهكذا في عصر الحمَلات الصليبية، والمسلمون في مثل انحطاطهم الخُلقي فلم تقمْ لهم قائمة. فقام المجاهدُ الصُّوفي العالم **الفذُّ العزُّ بن عبد السلام** وأمثاله في مصر بالتربية والتعليم، وغرَس روحَ الإسلام في نفوس أهله من قادة وسلاطين وجند وعامة، فحصل النّصر المبين وتحقق.

وأنا في هذه العُجَالة لا أستطيعُ أن آتي على ما حصلَ في قُرون من الزمان، ولكن أشير إلى ذلك إشارة، والحليمُ تكفيه تلك الإشارة. وهكذا بقيت الأمةُ إلى أن كان الغزوُ الحقيقيُّ المرُّ من قبل الأعداء على هذه الأمة التي قُوِّضتْ دعائمُها من الداخل إلا من أراد الله له السلامة، من دعاة

مُخلِصين، وعلماء عاملين، ومربين فاضلين قائمين بالهُدى.

حقًّا إن الأمةَ من هنا غُزيت ومن هنا دُخلت، لقَد طنّبَ الاستعمارُ خيامَه في بلاد المسلمين بلا عسكر ولا جنود ولا عدة ولا عتادٍ، إنه غزوُ الفكر.. إنه فك الروابط ..إنه انحلالُ الارتباط؛ لأن ثقافةَ الأمم هو سلاحُها وتعليمُها.. هو أساسُها وعقيدتها ودينها.. هو روح حياتها وأخلاقها.. هي سؤددُها وشعارُها .

* * *

* المُؤسّساتُ التَّعليميَّةُ ودورُها في محوِ التعليمِ الأبوي:

لقد قامتْ المؤسّساتُ التعليميةُ في عرض بلاد المسلمين وطولها وشرقها وغربها وشمالها وجنوبها. مؤسسات ضخمة، ومبـان مشيدة لدَحْر الجهـل، وبناء الفكـر، ودحض الأمّية والتقدُّم والحضارة، شعارات برّاقة لمّاعة عظيمة بعِظم تلك المباني المشيدة للتربية والتعليم كما يزعمون. فما من قرية من القُرى فضلاً عن المدن والحواضر إلا وهي تزخرُ بذلك، ورُوِّج لها رواجاً.. الله به عليم، وأصبحَ أبناءُ الأمة أولاً، ثم بناتُه ثانياً في صحون تلك المباني للتلقي وللتعليم وللتربية حيثُ كلّ ذلك معدومٌ وغيرُ موجود. مدارسُ ابتدائية .. إعدادية .. وأخرى ثانوية، وجامعاتٌ يتخرّجُ منها من يحملُ أعلى الشهادات وأعلى الدرجات العلمية، ما هو الناتج والنتاج من ذلك كلِّه؟.. أين الرابطةُ بين المعلم والمتعلم؟.. وأين التحلي بالأخلاق ؟.. وأين التحصُّنُ بالعقيدة ؟. وأين

الغيرةُ على الأمة؟.. وأين الارتباطُ الأُخَويُّ بين أفرادها؟.. أين هو الناتج من هذه المؤسسات التعليمية؟.. هل إذا تَلَمَّسه المتلمِّسُ يجده عند المتخرجين منها أفواجاً ؟.. بل إذا حصل التساؤل حقاً.. هل يكون ذلك عند القائمين عليها؟.. أم هل هُو مفقودٌ عند الطرفين ؟.. .

إذاً فالأمر دُبِّر بليل، وأيدي الخفاء تلعبُ دورها لتُنتج أجيال الضياع، وقوى الشر تدفعُ جاهدةً لإلغاء المدرسة الأبوية إن استطاعت، وتهميشها في سائر المجتمعات، وقد استطاعت. وقد أعلنها القرآن الكريم بوضوح، وفيه إنذارٌ وتحذيرٌ وإيقاظ لمن هو أهل لذلك كله، حيثُ قال: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1].

* * *

(١) سورة الصف آية (٨).

* **الحقيقة المُرَّة:**

ولابُدَّ لنا أن نتجرعَ ونستقريَ الواقعَ حتى نتعرّفَ على دُور الأيدي الخفيّة في إظهار النتائج التي سعَوا إليها، وبذلوا الغالي والرخيصَ في قطف ثمارها، من خلال واقعنا وواقع الأمة التي نعيش، ولا بُدّ من مقدّمة لكي نصل إلى ما أردنا، فإننا قد عرفْنا أنّ مَن حَفظ على الأمة اتزان سلوكها واتزان منهجها في معاملاتها وأخلاقها وسَيرها وسيرتها وصفاء روحها هم علماءُ التصوف، علماءُ التربية الذين يُربُّون النفوسَ على الصالح للفرد والمجتمع، الذين يخرّجون الفردَ صاف مصفىً مهذّباً يَشري نفسه ابتغاءَ مرضات الله، وهو الذي يقومُ بواجب الجهاد في الميادين إذا دعت الحاجة، ويخرجُ منتصراً لا مهزوماً، والأعداءُ قد عرفوا ذلك.

لذلك فإن أول شيء خرَّجتْه جامعاتُهم التي بنوها لتقويض المدرسة الأبوية إن استطاعوا أو تهميشِها ـ وقد فعلوا ـ الطعنُ في علماء التصوف،

فكان ذلك الطعنُ أول صيحة صاحت بها تلك الجامعات، وصاح به أولئك المدرِّسون في تلك الجامعات الاستشراقية. ومنهم تلقّتْ الأمةُ في سائر جامعاتها المبرمجة على ما أسّسهُ أولئك المستعمرون، إنّهُ الاستعمارُ الحقيقي الذي أصاب الأمةَ من داخلها فَغَزى فكرها وتقصَّد رموزَها، وسعى لفكِّ الارتباط بين الأمة، ومن جعلهم الله تعالى وُرَّاثاً يقومون بالتّبصير على بصيرة، إنّهُ غزوٌ فكري وثقافي جَرَّ الأمة، ليس فحسب إلى ما أسلفنا من فك الارتباط، بل إلى حمل فكرة العداء لأصحاب المدرسة الأبوية، المتمثلة في الرموز التي أودعها الله تعالى سرَّ الوراثة المُحمَّدية، القائمة على الهدايةِ الربّانيةِ في جميعِ أفراد الأمة المحمدية.

* * *

والنتيجةُ المُرَّة: أن هذه المدارسَ والجامعات خرَّجتْ من أبناءِ الأمة من هو ممسوخُ الفكر؛ لأن فكرَه غربيٌّ ومتحرر، والتحرُّر الذي يدعون إليه هو التحرر عن الأخلاق، التحرُّر عن الدين حتى

يقول ذلك المتخرج المسلم إنه عِلْمانيّ أو مُلحِد أو.... .

لقد خرَّجت تلك المدارسُ من يقبل أيَّ فكرة يحملُها الغرب، فاستحسنُوا عاداتهم، واستساغُوا تقاليَهم، وجلسُوا على سُدَّة الحكم، وصُنع القرار، وتقرير مصير الأمة، فصارُوا بها إلى ما يريده الأعداء، ونبذوا بكل يُسر وسهولة تعاليمَ السماء وقوانينَ الخالق. وسارُوا بالأمة من الهزيمة في ميادين القتال إلى الهزيمة في ميادين الفكر والثقافة والأخلاق، وأصبحت الأمة تخبط خبط عشواء، يتبعون كل ناعق، ويسمعون لكل داع إلى خَير أو إلى شرّ، وأصبحُوا لا يُميِّزون بين من يدعوهم للنفع والانتفاع ممن يدعوهُم إلى الرذيلة والفساد، والخروج عن دائرة المألوف عُرفاً حتى في بعض المجتمعات. بل جَرُّوا الأمة إلى أكثر من ذلك، حتى أصبحَ من ليس عندهُ شيءٌ من العلم والفكر يقودُ الأمة، ويحدِّدُ مصيرَها، ويؤسّسُ قواعدَها، ولا شكّ ولا ريبَ أن الأمةَ بهذه الحالة

ستكونُ لُقمةً سائغةً للمستعمر يُدخلُ في جسمها ما يريد، ويُملي عليها كلّ فكر يريد، وبقيَ أهل التعليم الأبوي، وهم مثل الشعرة البيضاء في جلد الثورِ الأسود، يصيحون بالأمة هنا وهناك، علَّ من يَسمعُهم أو عِاقلاً يعول عليهم إلا من أراد له الله الهداية، ونسألُه تعالى الهداية.

❊ ❊ ❊

خاتمـــة[١]

إن فعاليات هذا الحفل المبارك في مسجد الجند ما هو إلا رمز من رموز التعليم الأبوي الذي يربط بين الحاضر والماضي، يرسي قواعده الأمة المشرقة في نفوس أبنائها المتلهفة لمثل هذه الأمور إنه بحق ارتباط بمن سبق من عهد الرعيل الأول، إن أمثال هذه الفعاليات لا بد أن تجدد رسم طريق الأمة ولا بد أن تخلد تاريخ ذكراهم وتاريخ ماضيهم المجيد التالد .

وهو بحق يحزن أولئك الأعداء الذين يتربصون بالأمة الدوائر وأولئك الذين رضعوا من لبانهم، فإنهم لا يدرون ما يدورٍ في مِثل هذه الفعاليات بل ويتجاهلونها تجاهلا كاملاً كأن شيئاً لم يحدث وكأنه عندهم ضرب من ضروب العبث أو هذيان من هذيان فكر قديم . وكذا أولئك الذين عاشوا بين جمود الفكر وابتعاد الروح عن مدرسة الارتباط والمحبة والأبوة الحانية، وما أملته عليهم

(١) كُتبت هذه الرسالة لتُقال في الحفل الذي يعقد سنويًّا في مسجد الجند.

أفكار مدرسة الاستعمار، فأخذوا بفكرها المروج المتفق مع ما هم عليه من جمود وفهم للنصوص فهماً خاطئاً أو قاصراً فساروا على ما أراده منهم أولئك الذين وصلوا بالأمة إلى هذا المستوى الذي نشاهد، ولو أنهم عرفوا حقائق الأمور لعادوا إلى جادة الطريق وعرفوا العدو الحقيقي ودخلوا في زمرة الطائعين المرتبطين أهل الصفا والنسك والعبادة والأخلاق والإخلاص من أبناء الأمة الذين هم رموز لها ومشاعل هداية لأفرادها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد وآله الطاهرين.

وكتبه الراجي من مولاه العطية الهنية
محمد بن علي بن محمد باعطية
٤/ جماد الثاني / ١٤٢٤ هـ

الفهرس

المقدمة.....١
أثر التعليم الأبوي على جيل الصحابةومن بعدهم...٦
بداية الانحراف عن منهج التعليم الأبوي.....١٠
محاولات أعداء الدين لزعزعة المدرسة الأبوية..١٢
المؤسسات التعليمية ودورها في محو التعليم الأبوي...١٨
الحقيقة المُرَّة.....٢٠
الفهرس.....٢٥